مجلة جامعة الملك سعود، م٢٣، الآداب (٢) ، ص ص ٢٨٣-٣٠٩ ، الرياض (١٤٣٢/٢٠١١هـ)

عهد علي بن أبي طالب إلى الأشتر النخعي
دراسة توثيقية

فريال عبد الله هديب - محمد علي الشريدة

أستاذ مساعد مركز اللغات الجامعة الأردنية

(قدم للنشر في ١٤٣٢/٨/١٥هـ؛ وقبل للنشر في ١٤٣٢/١١/١٠هـ)

ملخص البحث. إنّ تراثنا العربي، ولا سيّما المتصل بحقبة صدر الإسلام قد نسبت إليه مرويّات تاريخية وأدبيّة حُملت على الثبات، وبُنيت وفقها أحكام وأفكار قد لا تكون متساوقة مع العصر وظروفه المختلفة في كثير مما جاء فيها، فكان لا بدّ من قراءة أخرى تستهدف توثيقها وإثباتها ليكون للأحكام نصيب من واقع الزمن، وظروفه في المجالات اللغوّية والتاريخية المختلفة.

وتوجه سعينا في هذا البحث إلى النّظر التوثيقيّ التأصيليّ لمرويّة مهمة أثبتها الشريف الرضي في كتاب "نهج البلاغة" وهي عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى واليه على مصر الأشتر النّخعيّ.

واستدعى هذا النظرَ الطولُ المفرطُ للعهد مما لم يألفه العصر، بل إنّ بعض القضايا التي تناولها من مثل سياسة طبقات المجتمع، وعدد من المصطلحات لم تكن متداولة كذلك.

واقتضت محاولة توثيق روايةِ العهدِ كما جاءت في نهج البلاغة تتبعَها في مصادر التاريخ المتقدمة والمتأخرة الأمر الذي يبيّن انقطاع النّص من زمنه المفترض إلى نهايات القرن الرابع الهجري، إذ لم يُؤتَ على ذكره أو الإشارة إليه قبل ذلك. كما أنّ الرواية التاريخية المتقدمة لم تثبته بل قدمت بديلاً عنه أكثر قرباً إلى العصر، وسَنَن الكتابة فيه، وكذلك أكثر انسجاماً مع عهود عليّ إلى ولاته على مصر قبل ولاية الأشتر. إضافة إلى إسناد العهد جملة من المهام التي لم تكن منوطة بالولاة في عصر صدر الإسلام. وبناءً على ما أفضى به النظر التوثيقي التأصيليّ للمرويّة، بات من العسير حملها لحقبة صدر الإسلام، أو لعليّ بن أبي طالب.

مقدّمة

العهد المنسوب إلى علي بن أبي طالب – رضي الله عنه - المتوفى سنة (٤٠هـ) والمرسل إلى وإليه على مصر الأشتر النخعيّ[١]، مرويّة تستوقف البحث بعدد من القضايا التي تحملها بنيوياً ودلالياً وأسلوبياً؛ فهي من أكثر ما نسب إلى العصر الإسلامي من النصوص طولاً. وهي كذلك تتضمن قضايا ذات تعلق بدلالات تتصل بطبقات المجتمع، وطرائق التعامل معها وسياستها؛ الأمر الذي حدا ببعض الباحثين إلى أن يعدّوه دستوراً للحكم والإدارة، ويبنون وفقه العديد من الأحكام على العصر دون محاولة التأكد من صحة نسبته إلى علي ابن أبي طالب[٢].

ويستفزّ الباحثَ ويحرضّه على التحقق من صحة نسبة هذه المروية إلى علي بن أبي طالب مؤشران، هما:

١- لا ظهور للعهد إلا أواخر القرن الرابع الهجري في كتاب نهج البلاغة لجامعه الشريف الرضي المتوفى سنة (٤٠٦هـ). ولم يرد النص في المظان المتقدمة قبل ذلك، ولم يُشَرْ إلى وجوده كذلك.

٢- اختلاف المروية بنيوياً ودلالياً وأسلوبياً عن وثائق العصر الإسلامي التي روتها المظان المتقدمة والمتأخرة في آن. وبناء على ذلك فإن إثبات نسبة النص إلى العصر يغدو مطلباً ملحا قبل الشروع في دراسته وتحليله؛ ليكون عمل الباحث المحلل الدارس مبنيّا على معلومات فيها قدر من الصحة تصلح لبناء أحكام، وافتراض فرضيات قوامها أسس قوية ثابتة تقارب العصر وظروفه.

ولتتحقق غاية البحث في التأصيل والتوثيق

(١) مالك بن الحارث النخعي، أحد الأشراف والأبطال المذكورين، حدّث عن عمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، وفقئت عينه يوم اليرموك. وكان شهماً مطاعاً، ألب على عثمان وقاتله، وكان ذا فصاحة وبلاغة. شهد صفين مع علي بن أبي طالب، وتميّز يومئذ، وكاد أن يهزم معاوية، فحمل عليه أصحاب علي لما رأوا مصاحف جند الشام على الأسنة يدعون إلى كتاب الله. وما أمكنه مخالفة علي، فكف.

ولما رجع علي من موقعة صفين، جهز الأشتر والياً على ديار مصر، فمات في الطريق مسموماً، فقيل: إن عبداً لعثمان عارضه، فسمّ له عسلا. وقد كان علي يتبرم به، لأنه كان صعب المِراس، فلما بلغه نعيه قال: إنا لله، مالك، وما مالك!. وهل موجود مثل ذلك؟! لو كان حديداً، لكان قَيْداً، ولو كان حجراً، لكان صَلْداً. على مثله فلتبك البواكي. انظر: ابن سعد. الطبقات الكبرى، ٢١٣/٦، الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مأمون

(٢) محمد مهدي شمس الدين، دراسات في نهج البلاغة، (دار الزهراء، ١٩٧٢، بيروت، ط١)، ص: ١٥- ١١٩، وكتابه: عهد الأشتر، (مؤسسة الرخاء، ١٩٨٤، بيروت، ط١)، وانظر: السيد عبد المحسن فضل الله، نظرية الحكم والإدارة في عهد الإمام علي عليه السلام للأشتر، (دار التعارف، بيروت، ط٢).

توزعت الدراسة في محورين توثيقيين:

أما المحور الأول فكان قراءة في رحلة النّص في المظان المختلفة المتقدمة والمتأخرة، واستدعى ذلك العودة بالمرويّة إلى الإطار التاريخيّ في روايتها الذي جمع بين علي بن أبي طالب والأشتر النخعي، وما جرى بينهما؛ وذلك لمعرفة ما إذا كانت الرواية التاريخية المتقدمة تساند تأصيل العهد وتوثيق نسبته إلى علي بن أبي طالب، ولمعرفة مدى اقتراب العهد من طبيعة الظرف التاريخي الذي أرسل في ظلّه.

أما المحور الثاني فجاء قراءة تحليلية لأطر العهد الخارجيّة، ودلالاته الداخلية، وتوزع في القضايا الآتية:

١- المرسَل إليه المفترض في العهد وما أنيط به من مسؤوليات.

٢- الطبقات في العهد وحقيقة وجودها في هذه الحقبة.

٣- لغة العهد وأسلوبه ومدى تناغمه مع سَنَن العصر الإسلامي في الكتابة الديوانية.

٤- المصطلحات الواردة في العهد، وما إذا كانت مستخدمة بهذه الدلالات في عصر المروية المفترض.

وفي أثناء النظر في هذه الجوانب انعطف البحث إلى عرضها على العصر بأبعاده التاريخية والإدارية والاجتماعية والأدبية في محاولة للوصول إثر ذلك إلى ما يرجّح نسبة العهد إلى العصر ويعززها، أو ينفي إسناده إلى علي بن أبي طالب وإلى عصره كذلك[٣].

وكان من المتعذر إثبات المرويّة كاملة بسبب طولها المفرط الذي يقارب ثمانية وعشرين صفحة، وسوف نقتبس الكثير منها للتدليل على ما جاء فيها.

المحور الأول: رحلة النص ومصادره

تبدأ رحلة هذه المروية تاريخياً في كتاب نهج البلاغة[٤] لجامعه الشريف

(٣) عبد العزيز الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، (دار المشرق، بيروت، ١٩٨٤، ط١)، ص: ٥- ٢٧، جاسر أبو صفية، "منهج في دراسة الأدب". مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، السنة العاشرة، عدد ٣١، وداد القاضي، نحو منهج سليم في موثوقية الرسائل العربية الإسلامية المبكرة، سلسلة موافقات (في قراءة النص الديني)، (تونس، ١٩٩٨)، ص: ١٤٠، محمود المقداد، تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الإسلام، (دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٣)، ص: ٣٦٩- ٣٩٥.

(٤) كتاب جمع بين دفتيه خطبا وأقوالا ورسائل نسبها الشريف الرضي لعلي بن أبي طالب، وتناولت هذه النصوص موضوعات في الإدارة والسياسة والدين، ومن الدين ما تعلق بالألهيات والكون وخلقه.
وقد أثار هذا الكتاب خلافا عند القدماء والمحدثين، فتباينت مواقفهم بين موثق ومضعف ومشكك، وقد استند المشككون إلى الفجوة الزمنية التي فصلت جمع النصوص عن زمانها المفترض؛ فالكتاب جمع في =

الرضي[٥] الذي ولد سنة (٣٥٩هـ) وتوفي سنة (٤٠٦هـ)، وقد جمع في هذا الكتاب خطباً ورسائل وأقوالاً منسوبة إلى علي بن أبي طالب المتوفى سنة (٤٠هـ).

والشريف الرضي حين أثبت النص في كتابه لم يشر إلى المصدر الذي أخذ عنه، أي لم يشر إلى كتاب أو إلى راوٍ أو مجموعة من الرواة تسهل على الباحث تتبّع مسيرة النص، وما طرأ عليه من زيادة أو نقصان أو تغيّر لفظي ومعنوي. إذن كان نهج البلاغة المصدر الأول الذي روى لنا هذا العهد؛ فالمظان التاريخية والأدبية وكتب التراجم التي سبقت النهج أو عاصرته أو التي تأخرت عنه لم ترو أي جزء منه، ولم تشر إليه أية إشارة. إذ غاب هذا العهد عن المصادر التي ترجمت لعلي أو روت أخبار حقبته التاريخية: كالطبقات الكبرى لابن سعد المتوفى (٢٣٠هـ)، وأنساب الأشراف للبلاذري المتوفى (٢٧٩هـ)، وتاريخ الرسل والملوك للطبري المتوفى (٣١٠هـ)، والعقد الفريد لابن عبد ربه المتوفى (٣٨٨هـ). وكذلك هو الحال في المصادر التي تلت كتاب نهج البلاغة: كالاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر المتوفى سنة (٤٦٣هـ)، وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر المتوفى (٥٧١هـ)، والرياض النضرة في مناقب العشرة للمحبّ الطّبري المتوفى سنة (٦٩٤هـ)، والبداية والنهاية لابن كثير المتوفى سنة (٧٧٤هـ). فكيف يغيّب نص مثل هذا عن هؤلاء الذين لم يدخروا وسعاً في رواية كل

غير أن مسار ظهور هذه المروية في المظان القديمة جاء على النحو التالي:

١- أواخر القرن الرابع الهجري في كتاب نهج البلاغة لجامعه الشريف الرضي المتوفى سنة

= منتصف القرن الرابع للهجرة في حين أن النصوص مسندة إلى مطلع القرن الأول للهجرة.

كما أن قضايا النصوص بمضامينها وأساليبها تثير تساؤلات نقدية وثقافية تتصل بمضامينها وبناها الأسلوبية. للمزيد انظر: جاسر أبو صفية، الخطابة وتطورها في عصر الخلفاء الراشدين، رسالة ماجستير، الجامعة اللبنانية، ١٩٧٥، ص ٥١- ٥٦.

(٥) محمد بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن جعفر بن محمد علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ولد في بغدد سنة ٣٥٩هـ، من أعيان القرن الرابع الهجري في الفقه والأدب والسياسة، ينتمي إلى أسرة ذات منزلة رفيعة دينية وسياسية واجتماعية وصف بالعفة والتدين وعلو الهمة والسخاء والجود. وكان متعدد الثقافة والعلوم، وترك ديوان شعر، وعدداً من المؤلفات منها: تلخيص البيان في مجازات القرآن، والمجازات النبوية، توفي سنة ٤٠٦هـ، لقي عناية من القدماء والمحدثين. انظر: ابن خلكان، ابو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٧، ٢/٤٢٤- ٤٢٧. إحسان عباس، الشريف الرضي، دار بيروت، دار صادر، ١٩٥٩، محمد عبد الغني حسن، الشريف الرضي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠، زكي مبارك، عبقرية الشريف الرضي، ط٢، القاهرة، ١٩٤٠، عبد الفتاح الحلو، الشريف الرضي، حياته ودراسة شعره، ط١، هجر للطباعة، ١٩٨٦.

(٤٠٦هـ)[٦].

٢- القرن السابع في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المتوفى سنة (٦٥٥هـ)[٧] وفي شرح ابن ميثم المتوفى سنة (٦٧٩هـ)[٨]. واعتمد كلاهما النص الذي روي في نهج البلاغة.

٣- القرن الثامن الهجري في كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري المتوفى سنة (٧٣٢هـ)[٩]، والخلاف بين رواية نهاية الأرب ونهج البلاغة قليل ومحدود. ولم يذكر النويري المصدر الذي أخذ عنه المرويّة.

إذن لا رحلة للمرويّة سابقة على نهج البلاغة تعين على تتبعه لمعرفة رواته ومصادره، وما إذا تخلل رحلته من إضافات وزيارات في الأفكار، أو مدى ما لحق لغته من تغيير، ولا اتصال لرحلة المروية كذلك بعد كتاب نهج البلاغة، إذ إن انقطاعاً ملحوظاً في الزمن من القرن الرابع إلى السابع. وثمة انقطاع آخر مدته ما يقارب القرن من الزمان من القرن السابع إلى الثامن فضلاً عن أن هذه المصادر ليس لها الصفة التوثيقية التاريخية، إذ تنتمي إلى المصادر الأدبية العامة (شروح وفنون أدبية).

- السياق التداولي لعلاقة علي بن أبي طالب بالأشتر:

روى أبو مخنف[١٠] المتوفى سنة (١٥٧هـ) عن يزيد بن ظبيان الحمداني في أحداث سنة (٣٨هـ) أن محمد بن أبي بكر كان واليا على مصر في عهد علي بن

(٦) الشريف الرضي علي بن الحسين، نهج البلاغة، (١م، تحقيق: محمد عبده، مؤسسة المعارف، ١٩٩٦)، ص: ٦٢١-٦٤٩.

(٧) ابن أبي الحديد عز الدين بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، (١١م، ٢١ جزء، تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، دار الأضواء، بيروت)، ١٧/١٩- ٦٩.

(٨) ابن ميثم، كمال الدين بن علي، شرح نهج البلاغة، (٥م، دار الثقلين، بيروت، ١٩٩٩، ط١)، ٥/١٢٧-١٧٦.

(٩) النويري، شهاب الدين، نهاية الأرب في فنون الأدب، (١٨م، نسخة مصوّرة عن طبعة دار الكتب)، ٦/١٩- ٣٢.

(١٠) هو لوط بن يحيى بن سعيد بن مِخْنَف بن سليم، كوفي النشأة عرف أخباريّا؛ إذ اعتمد عليه كبار المؤرخين في تأريخهم لحقبة صدر الإسلام والدولة الأموية ومن هؤلاء الطبري في تاريخه، عرف بالتشيع والغلوفيه. وكان له دور في رواية الحديث النبوي الشريف إلا أن علماء الجرح والتعديل لم يضعوه ضمن الرواة الثقاة العدول بل عدّوه من الضعفاء، وقالوا فيه ليس بثقة. توفي سنة ١٥٧هـ. لمعرفة المزيد عن أبي مخنف ودوره في الرواية التاريخية، انظر: الصفدي، صلاح الدين بن أيبك، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠، ج٢٤/٣٠٥- ٣٠٦، علي كامل القرعان، أبو مخنف ودوره في نشأة الكتابة التاريخية، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٤، ص: ١١-٢٠.

أبي طالب، وبسبب الثورات المطالبة بدم عثمان بن عفان فسدت مصر على واليها محمد، فبلغ وثوب أهل مصر عليه إلى علي فاستقر رأيه على تولية مالك بن الحارث الأشتر مصر[١١]، وكتب إليه وهو بنصيبين يقول: "أما بعد، فإنك ممن استظهرته على إقامة الدين، وأقمع به نخوة الأثيم، وأشدّ به الثغرَ المخوف. وكنتُ قد وليت محمدَ بن أبي بكر مصر، فخرجتْ عليه بها خوارج، وهو غلام حَدَث ليس بذي تجربة للحرب، ولا بمجرب للأشياء، فاقدمْ عليّ؛ لننظر في ذلك فيما ينبغي، واستخلفْ على عملك أهلَ الثقة والنصيحة من أصحابك"[١٢].

وحين وصل الأشتر إلى عليّ وخبّره خبر أهل مصر قال له: "ليس لها غيرك. اخرجْ رحمك الله فإني إن لم أوصك اكتفيت برأيك. واستعنْ بالله على ما أهمك، فاخلط الشدةَ باللين، وارفقْ ما كان الرفقُ أبلغ. واعتزم بالشدة حين لا يغني عنك إلا الشدة"[١٣]. وتذيل هذه الرواية بأن فعل علي عَظُمَ على معاوية بن أبي سفيان الذي كان طامعاً في مصر فدسّ إلى الأشتر من قتله بالسّم وهو في القلزم[١٤]، أي قبل وصوله مصر[١٥].

وتنتهي رواية أبي مخنف عن فضيل بن خديج عن مولى للأشتر بقوله: "لما هلك الأشتر وجدنا في ثقله[١٦] رسالة عليّ إلى أهل مصر"[١٧]. ولم يقل أنّه وجد شيئاً آخر.

ولعلّ رواية أبي مخنف تسلمنا إلى:

١- أنّ عليا لم يرسل إلى الأشتر أو يسلّمه إلا الرسالة التي طلب فيها منه التوجه إليه ليوليه مصر.

٢- أن عليا قد أوصى الأشتر وصيّة عامة موجزة تختلف اختلافاً جليّاً عن العهد الذي رواه الشريف الرضيّ.

٣- أن الأشتر لم يصل مصر ليرسل إليه علي كتاباً بالعهد، كذلك لم يحمّله أي كتاب إذ وجد بحوزته فقط رسالة علي إلى أهل مصر.

ومما له صلة بالرواية التاريخية لإرسال والٍ إلى مصر أنّ عليا بعد مقتل الأشتر، وعدم وصوله مصر لتسلم زمام الأمر فيها أرسل كتابا إلى محمد بن أبي بكر يقرّه فيه على ولاية مصر ويوصيه قائلاً له: "... أما بعد فقد بلغني موجدتك من تسريحي الأشتر إلى عملك، وإني لم أفعل ذلك استبطاءً لك في الجهاد، ولا ازدياداً

(١١) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (بيروت، لبنان)، ٥/٩٤- ٩٥.

(١٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٥/٩٥.

(١٣) المصدر نفسه، ٥/٩٥.

(١٤) القلزم: بلدة على ساحل البحر الأحمر قرب أيلة والطور ومدين، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، (٢م، دار صادر، بيروت)، ٤/٣٨٧.

(١٥) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٥/٩٥- ٩٦.

(١٦) الثقل: المتاع، انظر: ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، (٣٠م، دار صادر، بيروت)، مادة ثقل.

(١٧) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٥- ٩٦.

مني لك في الجِدّ. ولو نزعت ما تحت يدي من سلطانك لوليتك ما هو أيسر عليك في المؤونة، وأعجب إليه ولاية منه. إن الرجل الذي كنت وليته مصر كان لنا نصيحاً، وعلى عدونا شديداً، وقد استكمل أيامه، ولاقى حمامه، ونحن عنه راضون، فرضي الله عنه، وضاعف له الثواب وأحسن له المآب. اصبرْ لعدوك، وشمّرْ للحرب، وادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وأكثرْ ذكَر الله، والاستعانةَ به، والخوفَ منه، يكفكَ ما أهمّك ويعنكَ على ما ولاّك. أعاننا الله وإياك على ما لا ينال إلا برحمته..."[١٨]. وبما أن عليا حريص كل الحرص على ولاية مصر، وأرسل إلى الأشتر عهداً مطولا جداً في كيفية إدارتها وسياسة الناس فيها، ولم يقدَّر للأشتر وصولها، فلِم لم يكرر علي العهدَ نفسه لمحمد بن أبي بكر والحال أنه: "غلام حَدَث ليس بذي تجربة للحرب، ولا بمجرب للأشياء" كما جاء في رسالة علي إلى الأشتر؟! فالأولى بهذا الدستور الإداري ذي التفاصيل الدقيقة عن مصر وطبقاتها أن يرسَل إلى محمد بن أبي بكر ليسير على هديه في حكم مصر، ويكون عوناً له في تجاوز خبرته المحدودة في الحياة والحرب.

ويضاف إلى ذلك أنّ عليا أرسل إلى أهل مصر كتاباً وُجدَ في متاع الأشتر حين قتل، ولا ذكر للعهد المنسوب إلى علي فيه كما جاء في رواية أبي مخنف عن فضيل بن خديج. أما كان جديراً به إخبارهم أنه أوصاه ورسم له دستوراً لإدارة مصر بكل فئاتها ليشعروا بالأمان والاطمئنان، أو الرهبة والخوف؟ وقد جاء في رسالة علي إلى أهل مصر برواية أبي مخنف في تاريخ الطبري: ".. أما بعد فقد بعثت إليكم عبداً من عبيد الله لا ينام أيام الخوف، ولا ينكل عن الأعادي حذار الدوائر، أشدّ على الكفار من حريق النار، وهو مالك بن الحارث أخو مذحج فاسمعوا له وأطيعوا، فإنه سيف من سيوف الله، لا نابيَ الضريبة، ولا كليلَ الحدّ. فإن أمركم أن تقدموا فأقدموا، وإن أمركم أن تنفروا فانفروا، فإنّه لا يقدم ولا يحجم إلا بأمري. وقد آثرتكم به على نفسي لنصحه لكم، وشدة شكيمته على عدوكم..."[١٩].

إنّ رواية أبي مخنف للحدث التاريخي وما تضمنته من وصايا ومراسلات تبدو متناسقة ومتفقة مع الأساليب المتبعة في النثر الإداري للعصر، ومتفقة مع الحدث الذي يتطلب تعليمات موجزة ذات معان دقيقة من حيث تفريده برعاية المصالح العامة وشدته على أهل العداوة من الكفار، بما يؤهله في ذلك أن يبذلوا له الطاعة في النفير والاستعداد.

(١٨) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٩٧/٥، وانظر: الرضي، نهج البلاغة، ص: ٥٩٣- ٥٩٤.

(١٩) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٩٦/٥، وانظر: الرضي، نهج البلاغة، ص: ٥٩٨- ٥٩٩.

المحور الثاني: مضامين العهد ولغته

مضامين العهد

- **المرسل إليه في العهد**

تفترض المرويّة أن العهد قد أرسل إلى الأشتر النخعي أو سلّم إليه حين ولاّه علي بن أبي طالب مصر. والولاة في هذه الحقبة كانوا تابعين للخليفة في مركزه، هو الذي يوليهم ومنه يتلقون الأوامر. وهو الذي يحاسبهم إذا ما تجاوزوا الحق، أو قصّروا فيما أوكل إليهم من أعمال[٢٠]. وهذا جليّ في مراسلات عمر بن الخطاب إلى ولاته[٢١]، وفي مراسلات علي كذلك[٢٢]. والمرسل إليه المفترض في العهد هو أحد ولاة الخليفة إلى أحد الأمصار إلا أنّ الصلاحيات التي أعطيت له، والمهامّ التي أنيطت به في العهد تجعله أعلى منزلة من وال في عصر صدر الإسلام، إذ إن ما أنيط بالوالي في العهد ما يلي:

١- تعيين الوزراء الذي جاء في قوله: "إن شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً، ومن شركهم في الآثام، فلا يكوننّ لك بطانة..."[٢٣]. ويدفع ذلك أن الخليفة نفسه لم يكن له وزراء فكيف بالوالي؟ ولو افترض جدلاً أن منصب الوزير كان مقرراً في هذا العهد فإن اختياره ليس من صلاحيات الوالي؛ لأن الوزير تابع لرأس الدولة، ومع ذلك فإن استحداث منصب الوزير كان في العصر العباسي؛ قال ابن طباطبا: "... فلما ملك بنو العباس تقررت قوانينُ الوزارة، وسميّ الوزيرُ وزيراً..."[٢٤].على أن الوزراء في العهد فئات ومراتب: "... فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك، ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بمر الحق لك، وأقلّهم مساعدة فيما يكون منك مما كره اللهُ لأوليائه واقعاً ذلك من هواك حيث وقع"[٢٥]. وهو ما يجعل الأمرَ أدخلَ في الشك؛ لأنه يناقض البساطة التي جرت فيها بنيوية الدولة الإسلامية في العهد الراشدي. وقد يقال إنّ "الوزير"

(٢٠) انظر: عبد السميع الهراوي، لغة الإدارة العامة في صدر الإسلام، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦)، ص: ٣٢٧- ٣٤٤، إبراهيم حركات، السياسة والمجتمع في عصر الراشدين، (الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٥، بيروت)، ص: ٢٦٣- ٢٩٠، محمد عبد المنعم خميس، الإدارة في صدر الإسلام، (دراسة مقارنة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٧٤)، مصر، ص: ١٤٣- ١٦٧.

(٢١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/٢٠٣- ٢٠٥، ٢٢٦- ٢٢٧.

(٢٢) الرضي، نهج البلاغة، ص: ٥٤٢، ٥٥٥- ٥٥٦.

(٢٣) الرضي، نهج البلاغة، ص: ٦٣٢.

(٢٤) ابن طباطبا، محمد بن علي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، (١م، مطبعة بيروت، ط١، ١٩٦٠)، ص: ١٥٣، وانظر: عبد العزيز الدوري، النظم الإسلامية، (مطبعة نجيب، بغداد، ط١، ١٩٥٠)، ص: ٢١٠- ٢٣١، محمد الصادق عفيفي، المجتمع الإسلامي وأصول الحكم، (دار الاعتصام، ط١، ١٩٧٩)، ص: ٢٩٣- ٢٩٥.

(٢٥) الرضي، النهج، ص: ٢٢٦.

في هذه الحقبة قد عرف بدلالة المستشار والمساعد والمعين وهذا لا جدال فيه لكنّ لفظة "وزير" بهذا المعنى لم تكن مستخدمة في أدبيّات عصر صدر الإسلام وكذلك في العصر الأموي[٢٦] إذ استخدِمَ عوضاً عنها الفعل "شاور" ومشتقاته، وقد استخدمها عليّ في النهج حين قال: "ولا تدخلنّ في مشورتك بخيلاً يعدِل بك عن الفضل، ويعِدك الفقر، ولا جباناً يضعفك عن الأمور، ولا حريصاً يزيّن لك الشّرَه بالجَوْر...."[٢٧].

٢- السلطة المالية في ولايته وفي الولايات الأُخر في قوله: "...واجعل لهم قسماً من بيت مالك، وقسماً من غلاّت صوافي الإسلام في كل بلد، فإنّ للأقصى منهم مثل الذي للأدنى.."[٢٨]. إن الخليفة هو المسؤول عن المال في كلّ البلاد الإسلامية، وليس الوالي الذي كانت سلطته المالية محدودة في ولايته، ولم تكن سلطة مطلقة بل مقيدة بالوالي في مركزه فلا سلطة للولاة على أموال الصوافي في الولايات غير المنوطة بهم، فالخليفة وحده من يملك هذا الحق[٢٩].

٣- تعيين العمال في قوله: "ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختباراً، ولا تولّهم محاباة وأثرة"[٣٠]. إنّ للوالي الحق في أن يستعين بمن يراه كفياً في الإدارة وتصريف شؤون الناس، لكن النّص يوحي أن المقصود هم الولاة على الأقاليم، وليس العمال الذين تحت إمرة الوالي. وهؤلاء الولاة يناط بالخليفة فقط انتقاؤهم واختبارهم، ومن ثم محاسبتهم إذا ما

(٢٦) الأزدي، محمد بن عبد الله، فتوح الشام، تحقيق: محمد عبد المنعم عامر، (مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٧٠)، ص: ٢٠-٢١، ٢٣، ٤٩-٥٠، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٥٩٣/٣، ٤٤٥/٣، ١٩٦/٦، المبرّد، أبو العباس محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (ط١، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٧٧)، ٢٤٧/٣- ٢٤٨، الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، (ط١، دار الكتاب العربي، ١٩٩٠)، حوادث سنة: ٦١-٨٠هـ، ص: ٣٥٠، البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار ورياض زركلي، (دار الفكر، بيروت، ١٩٩٩)، ٢١٠/٧- ٢١١، وانظر: فريال هديب، "الخطاب الأخلاقي في وصايا العصر الإسلامي، مضامين وأساليب"، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، حولية ٢٧، الرسالة ٢٥٥، ص: ٢٥- ٢٦، ٣٧، محمد ماهر حمادة، الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي، (ط١، مؤسسة الرسالة دار النفائس، ١٩٧٤).

(٢٧) الرضي، النهج، ص: ٦٢٥.

(٢٨) المصدر نفسه، ص: ٦٣٦.

(٢٩) أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم، الخراج، (١م، تحقيق: إحسان عباس، دار الشروق، بيروت، ط١)، ١٩٨٥، ص: ١٤٠- ١٤٩، عبد السميع الهراوي، لغة الإدارة العامة في صدر الإسلام، ص: ٣٢٧- ٣٤٤، إبراهيم حركات، السياسة والمجتمع في عصر الراشدين، ص: ١٨٩-٢١٩.

(٣٠) الرضي، نهج البلاغة، ص: ٦٣٣.

حادوا عن حدود المطلوب منهم إنجازه[٣١].

٤- تعيين الكتّاب في قوله: "ثم انظر في حال كتّابك فولّ على أمورك خيرهم.."[٣٢].

٥- تعيين القضاة في قوله: "ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك..."[٣٣].

وسيأتي الحديث عن حقيقة وجود هاتين الطبقتين في أثناء تأصيل طبقات المجتمع كما جاءت في العهد.

وبناءً على ذلك فالمرسَل إليه في العهد بما خُوّل من سلطات لم يكن أحدَ ولاة صدر الإسلام، بل إنّ العهد مرسل إلى من هو في منزلة خليفة، أو إلى أمير المؤمنين كما يظهر من المرويّة وإشارية مضامينها.

الطبقات في العهد

جاء في العهد: "واعلم أنّ الرعيةَ طبقاتٌ لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض. فمنها جنود الله، ومنها كُتّاب العامة والخاصة، ومنها قضاة العدل، ومنها عُمّال الإنصاف والرفق، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس، ومنها التُّجار وأهل الصناعات، ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة. وكل قد سمّى الله له سهمه، ووضع على حدّه فريضة في كتابه أو سنة نبيه – صلى الله عليه وآله وسلم – عهداً منه عندنا محفوظاً"[٣٤].

وإثر تعداد طبقات المجتمع بدأ العهد بشرح طريقة التعامل مع كل طبقة مفصلاً دورها في المجتمع ومزاياها وأسس اختيارها. ولنا على هذه الوحدة النصية عدد من الملاحظات التوثيقية:

١- يفترض العهد أن هذه الطبقات لها وجود في القرآن الكريم والسنة النبوية، وأن لكل منها نصيباً من الحق، وهذا لا تؤيده الآيات القرآنية، ولا تؤيده الأحاديث النبوية. فقد وردت الدرجات أو الطبقات في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾[٣٥]، وفي حديث رسو ل الله – عليه الصلاة والسلام – جاء: "... ألا إنّ بني آدم خلقوا على طبقات شتّى؛ منهم من يولد مؤمناً، ويحيا مؤمناً ويموت مؤمناً. ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً، ويموت كافراً..."[٣٦]. فلا

(٣١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٢٠٤/٤، ٢٧١، ٣٣٦، وانظر: محمد خريسات، "عمر بن الخطاب والولاة"، المؤرخ العربي، عدد ٢٥، (١٩٨٤)، ص: ١٥٣- ١٨١.

(٣٢) الرضي، نهج البلاغة، ص: ٦٣٦.

(٣٣) المصدر نفسه، ص: ٦٣٢.

(٣٤) الرضي، نهج البلاغة، ص: ٦٢٨.

(٣٥) سورة الأنعام، آية ١٦٥.

(٣٦) أحمد بن حنبل، المسند، (٤٥م، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١)، ١٩٩٧، ٢٢٧/٨- ٢٢٨.

وجود لتقسيم العهد الطبقي في القرآن الكريم والسنة النبويّة.

٢- يفترض العهد أنّ المجتمع طبقات عدّدها واحدة تلو الأخرى دون تحديد لمواطنها؛ إذ لم يذكر في العهد أنّ الرعية في مصر طبقات إذ جاء الخطاب على العموم دون تخصيص. فهل هي في المجتمع الحجازي أم العراقي أم في المجتمع المصري الذاهب إليه الأشتر. وإذا كانت موجودة في مجتمع الحجاز أو العراق حيث خَبِرَهما علي فكيف يقيس عليهما المجتمع المصري الذي لم يعش فيه علي، ولم يختبر حاله وحال أهله؟ فلكل مجتمع خصوصية قبل الفتح الإسلامي وبعده. ومع ذلك فالمجتمع في هذه المناطق، وفي هذه الحقبة لم يكن يتوزعه هذا النظام الطبقي الصارم[٣٧]. بل إنّ المجتمعات إثر اعتناقها الإسلام لم تتشكل طبقاتها وفئاتها بعد، فالذي يدرس عهد عمر بن الخطاب وعهد عثمان بن عفان تاريخاً وأدباً يرى أنّ المجتمع في عهد علي قد قفز قفزات عديدة على غير مثال سابق في زمن قياسي، وهذا لا يتوافق والواقع التاريخي إذ ليس بين العهود الثلاثة زمناً مديداً يتيح للمجتمع أن يتشكل على الهيئة التي رسمها العهد.

٣- في تحديد العهد للطبقات ذكر لطبقتين لم تتشكلا في هذه المرحلة وهي طبقة الكتاب وطبقة القضاة.

أما الكتّاب الذين قسمهم إلى كتّاب عامة وخاصة فيدفعه ما ذكره الطبري عن الكتّاب في هذه المرحلة إذ لم يتحدث عن كونهم طبقة أو فئة بل كانوا أشخاصاً معدودين محدودين[٣٨]. وحتى لو كان عند والي مصر كتابٌ أو كاتبٌ فلن يشكلوا طبقة تستوجب تفصيل الحديث عنها كما جاء في العهد. بل ذهب العهد إلى أبعد من ذلك إذ جاء الحث منه على أن يجعل لرأس كل أمر كاتباً: "ثم انظر في حال كُتّابك فول على أمورك خيرَهم؛ واخصص رسائلك التي تدخل فيها مكائدَك وأسرارَك بأجمعهم لوجوه صالح الأخلاق ممن لا تبطره الكرامةُ فيجترئ بها عليك في خلاف لك بحضرة ملأ، ولا تقصّرْ به الغفلةُ عن إيراد مكاتبات عمالك عليك، وإصدار جواباتها على الصواب عنك فيما يأخذ لك ويعطي منك. ولا يضعف عقداً اعتقده لك، ولا يعجزُ عن إطلاق ما عُقد عليك، ولا يجهلُ مبلغ قدر نفسه في الأمور؛ فإن الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل. ثم لا يكن اختيارُك إياهم على فراستك واستنامتك وحسن الظن منك؛ فإن الرجالَ

(٣٧) شكري، فيصل، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول الهجري: نشأتها مقوماتها، تطورها اللغوي، (دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٣)، ص: ١٩- ١٦٠، وانظر: إبراهيم حركات، السياسة والمجتمع في عصر الراشدين، ص: ٢٩١- ٢٩٤، وانظر:
Reuben Levy, *The Social Structure of Islam*, Cambridge, (1965, PP. 35-19).

(٣٨) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٦/١٧٨- ١٨٦، وانظر، إبراهيم حركات، السياسة والمجتمع في عصر الراشدين، ص: ١٦٨- ١٧٥.

يتعرفون لفراسات الولاة بتصنعهم وحسن خدمتهم، وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شيء. ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك: فاعمد لأحسنهِم كان في العامة أثراً، وأعرفِهم بالأمانة وجهاً؛ فإنّ ذلك دليل على نصيحتك لله ولمن وليت أمره. واجعل لرأس كل أمر من أمورك رأسا منهم لا يقهره كبيرُها، ولا يتشتت عليه كثيرُها، ومهما كان في كُتّابك من عيب فتغابيت عنه أُلزمته"[٣٩]. والكاتب كما في العهد له دور في سياسة الدولة وإدارتها: ".. ثم أمور من أمورك لا بدّ لك من مباشرتها، منها إجابةُ عمّالك بما يعيا عنه كتابك.."[٤٠]. وفي هذه الحقبة لم يكن للكاتب دور في الإدارة، واتخاذ القرارات نيابة عن الخليفة أو الوالي، مع ملاحظة أن طبقة الكتاب تقدمت على طبقة القضاة فهل كاتب الدولة أرفع منزلة، وأكثر أثراً في الدولة من القاضي؟

٤- أما القضاة فقد كان الخليفة يولّي شؤون فضّ النزاع بين الناس للوالي نفسه، أو يعين قاضيا يقوم بهذا الأمر، ولم يؤلف هؤلاء فئة أو طبقة تستدعي من علي بن أبي طالب الخليفة أن يوصي واليه على مصر بكيفية اختيارهم؛ لأن اختيار القاضي لم يكن موكلاً إليه إذ الوالي هو المنوط به القيام بهذه المهمة، أو أن الخليفة يرسل إليه قاضياً معيناً لهذا المنصب[٤١].

إن تقسيم المجتمع في هذه المرحلة التي لم يتشكل بعد فيها المجتمع الإسلامي فيه قدر كبير من التعسّف والافتراض، إذ إن هذا التقسيم لا تؤيده المظانُّ جميعاً، ولا الظروفُ التي مرّ بها المجتمع في طور تشكله وتكوّنه. فضلاً عن عدم انسجام تقسيم المجتمع إلى طبقات؛ إذ عدّد الطبقات وتحدث عنها، ومن ثم سيتحدث عن طبقة العامة والخاصة والعلماء والحكماء، وبعض الفئات الأخر التي حثه على التقرب منها كما سيأتي في الحديث عن "المصطلحات في العهد".

- **لغة العهد وأسلوبه**

١- بنيوية العهد

إنّ أول ما يلاحظ على هذه المروية طولها المفرط، إذ وصل إلى حوالي ثلاثمائة وخمسين سطراً. وهذا يخالف العهود المنسوبة إلى علي في "نهج البلاغة" نفسه، وفي غيره من المظان، إذ جاءت العهود موجزة بل كانت أقرب إلى الإيجاز الشديد، وكانت قضاياها محددة لا مجال فيها للاستقصاء وفضول القول،

(٣٩) الرضي، نهج البلاغة، ص: ٦٣٦- ٦٣٧.

(٤٠) المصدر نفسه، ص: ٦٤١.

(٤١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣٩/٤، ٩٥، ١١٣، ٢٠٤، البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق: محمد رضوان، (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٢)، ص: ١٤٦، ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد، جمهرة أنساب العرب، تحقيق: ليفي بروفنسال، (دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٨)، ص: ٣٧٣.

وتفريعاته. ومن ذلك عهده إلى عماله على الخراج الذي لم يتعدّ العشرين سطراً[٤٢]، وكتابه إلى أمرائه على الجيوش الذي لم يتعد خمسة عشر سطراً[٤٣]، وكتابه إلى بعض عماله الذي جاء في سبعة أسطر[٤٤]، وكتابه إلى بعض عمّاله الذي جاء في ثمانية وعشرين سطراً[٤٥]، وكتابه إلى عثمان بن حنيف الأنصاري عامله على البصرة الذي لم يتجاوز أربعة وستين سطراً[٤٦]. وعهده إلى محمد بن أبي بكر حين ولاه مصر سنة ست وثلاثين الذي جاء في أحد عشر سطراً فقط[٤٧].

وهذه بعض نماذج من عهوده: "قال هشام: عن أبي مخنف، قال: حدثني الحارث بن كعب الوالبي، عن أبيه، قال: كنت مع محمد بن أبي بكر حيث قدم مصر، فلما قدم قرأ عليهم عهده: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد عبد الله علي أمير المؤمنين، إلى محمد بن أبي بكر حين ولاه مصر، وأمره بتقوى الله والطاعة في السر والعلانية، وخوف الله عز وجل في الغيب والمشهد. وباللين على المسلمين، وبالغلظة على الفاجر، وبالعدل على أهل الذمة، وبإنصاف المظلوم، وبالشدة على الظالم، وبالعفو عن الناس، وبالإحسان ما استطاع، والله يجزي المحسنين، ويعذب المجرمين. وأمره أن يدعو من قبله إلى الطاعة والجماعة؛ فإن لهم في ذلك من العاقبة وعظيم المثوبة ما لا يقدرون قدره، ولا يعرفون كُنْهَه. وأمره أن يجبي خراج الأرض على ما كانت تُجبى عليه من قبل، لا يُنتقص منه ولا يبتدع فيه، ثم يقسمه بين أهله على ما كانوا يقسمون عليه من قبل. وأن يُلين لهم جناحه، وأن يواسي بينهم في مجلسه ووجهه، وليكن القريب والبعيد في الحق سواء. وأمره أن يحكم بين الناس بالحق، وأن يقوم بالقسط، ولا يتّبع الهوى، ولا يخف في الله عزّ وجلّ لومة لائم؛ فإنّ الله جل ثناؤه مع من اتقى وآثر طاعته وأمره على ماسواه[٤٨].

وكتب إلى بعض عماله: "أما بعد، فقد بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطتَ ربك، وعصيتَ إمامك، وأخزيتَ أمانتك. بلغني أنك جردتَ الأرض، فأخذتَ ما تحت قدميك، وأكلتَ ما تحت يديك. فارفعْ إلي حسابَك، واعلم أنّ حساب الله أعظمُ من حساب الناس؛ والسلام"[٤٩].

وكتب إلى بعض عماله: "أما بعد، فإنك ممن أستظهر به على إقامة الدين، وأقمع به نخوةَ الأثيم، وأسدُّ به لهاةَ الثغر المخوف. فاستعن بالله على ما أهمك، واخلط الشدةَ بضغث من اللين، وارفق ما

(٤٢) الرضي، نهج البلاغة، ص: ٦١٨- ٦٢٠.
(٤٣) المصدر نفسه، ص: ٦١٧- ٦١٨.
(٤٤) المصدر نفسه، ص: ٦١٣.
(٤٥) الرضي، نهج البلاغة، ص: ٦٠٠- ٦٠٢.
(٤٦) المصدر نفسه، ص: ٦٠٦- ٦١٢.
(٤٧) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٥٥٦/٤.
(٤٨) المصدر نفسه، ص: ٥٥٦/٤.
(٤٩) الرضي، نهج البلاغة، ص: ٦٠٠

كان الرفقُ أرفق، واعتزم بالشدة حين لا يغني عنك إلا الشدة، واخفض للرعية جناحَك، وابسط لهم وجهك، وألنْ لهم جانبك، وآس بينهم في اللحظة والنظرة والإشارة والتحية؛ حتى لا يطمعَ العظماءُ في حيفك، ولا ييأسَ الضعفاءُ من عدلك، والسلام"[٥٠].

وإذا كان الأمر كذلك في عهود علي رضي الله عنه، فلماذا خرج عهده إلى الأشتر عن هذا السَنَن في الكتابة؟!

إن هذا الطول يتناقض مع خصائص الكتابة الديوانية في هذه الحقبة وما تلاها؛ فقد أجمع الباحثون الذين درسوا نثر هذا العصر على أنّ الإيجاز من أبرز سمات هذا النثر الذي كان موجهاً لأغراض إدارة الدولة، فكانوا يكتفون بالعبارة الموجزة المقتضبة فيما يطرحونه من قيم ووصايا وتعليمات دون تكرار، ومن غير إلحاح على الأفكار بتفصيلات وتفريعات. فالإطناب في العهد يخالف سنن القوم في نثرهم لا سيّما وأن ما وصلنا نثرٌ إسلاميٌّ في بواكيره الأولى[٥١].

وبقليل تتبّع للمراسلات التي كانت تدور بين الخلفاء والولاة، وأمراء الجيوش فسوف يتبدّى لنا جليّاً الإيجاز المكثف، البعيد عن كل مظاهر الإطالة والإطناب[٥٢].

وطول العهد كذلك لا يتسق والظرف التاريخي الذي أرسل في ظلّه، وذلك أنّ عليا لم يحلّ مشكلته مع معاوية، ولا مع الخوارج، ومصر كذلك فيها ثورات لم يقدر على مواجهتها محمد بن أبي بكر، وهذا كله لا يستدعي عهداً بهذا الطول، وهذه التفصيلات التي تحتاج إلى تروّ، وشحذ ذهن، وطول تفكّر. فهي أقرب إلى الصنعة التي هي ناتج الأناة والتدبر في بناء النص على أساس من التنوع والشمول، في حين أن النثر في هذه الحقبة كان مصدره الطبع والفطرة وقد تدنّى فيه حظ الصنعة والتروّي، وكانت غايته الإعلامَ والإخبارَ وإيصالَ الفكرة أولا بأقل قدر من الألفاظ الموحية الدالة، فالأقرب لوصية علي إلى الأشتر ما جاء في رواية أبي مخنف إذ إن إيجاز الوصيّة، وتكثيفها مناسب للظرف الذي فيه علي وللظرف الذي سيسير إليه الأشتر. وهو كذلك منسجم مع طرائق القوم في العهد والوصية[٥٣].

---

(٥٠) المصدر نفسه، ص: ٦١٣.

(٥١) شكري فيصل، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، ص: ٣٦٥- ٣٦٧، أنيس المقدسي، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، (دار العلم للملايين، ط١، ١٩٦٠)، ص: ٣٦- ٣٨، مصطفى عليان، مقدمة في دراسة الأدب الإسلامي، (دار المنارة، جدّة، ط١، ١٩٧٩)، ص: ١١٦- ١٢٣، محمود المقداد، تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الإسلام، ص: ٢٦٨-٢٦٩.

(٥٢) الأزدي، محمد بن عبد الله ،١م، فتوح الشام، تحقيق: عصام عقلة ويوسف بني ياسين، (مؤسسة حمادة، اربد)، ص: ٨١- ٨٣، ٩٧- ٩٨، ١٠٧، ١١٢- ١١٦، ١٢٨، ١٣٤، ١٣٩، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٤١.

(٥٣) فريال هديب، "الخطاب الأخلاقي في وصايا العصر الإسلامي"، حولية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، حولية ٢٧، رسالة ٢٥٥، وانظر: =

ويعود الطول المفرط للعهد إلى جملة من أساليب الإطناب ومنها: تكرار المعاني بتلوينات جمليّة، وهذا التكرار لم يكن من سمات أدب هذه المرحلة النثري بل كان يكتفي بالتعبير عن الفكرة مرّة واحدة معبّرة وبأقل المفردات. وأوضح مثال لتكرار المعاني في العهد ما جاء في مقدّمته حيث قال: "وأمره أن يكسرَ نفسهَ من الشهوات ويزعها عند الجمحات؛ فإن النفسَ أمارة بالسوء، إلا ما رحم الله. ثم اعلم، يا مالك أني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دولٌ قبلك من عدل وجَوْر، وأنّ الناسَ ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك، ويقولون فيكَ ما كنتَ تقول فيهم، وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده. فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح، فاملكْ هواك وشح بنفسك عما لا يحل لك فإن الشحَّ بالنفس الإنصافُ منها فيما أحبت أو كرهت. وأشعِرْ قلبك الرحمةَ للرعية، والمحبةَ لهم، واللطفَ بهم، ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزَلَل، وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ. فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، فإنك فوقهم ووالي الأمر عليك فوقك، واللهُ فوقَ من ولاك. وقد استكفاك أمرهم وابتلاك بهم. ولا تنصبنّ نفسك لحرب الله فإنه لا يدَ لك بنقمته، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته. ولا تندمنّ على عفو، ولا تبجحنّ بعقوبة، ولا تسرعنّ إلى بادرة وجدت منها مندوحة، ولا تقولنّ إني مؤمر آمر فأطاع؛ فإن ذلك إدغالٌ في القلب، ومنهكةٌ للدين، وتقربٌ من الغير. وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهةً أو مخيلةً فانظر إلى عظم ملك الله فوقك وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك؛ فإن ذلك يطامن إليك من طماحك، ويكف عنك من غربك، ويفي إليك بما عزب من عقلك. إياك ومساماة الله في عظمته، والتشبه به في جبروته، فإن اللهَ يذل كلَّ جبار، ويهين كلَّ مختال. أنصفْ اللهَ وأنصف الناسَ من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيتك، فإنك إلا تفعل تظلم ومن ظلم عبادَ الله كان اللهُ خصمَه دون عباده، ومن خاصمَه اللهُ أدحضَ حجته وكان لله حربا حتى ينزع أو يتوب. وليس شيءٌ أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم، فإن الله سميع دعوة المضطهدين وهو للظالمين بالمرصاد"(٥٤).

ولتتضح صورة التكرار في هذه المقدمة سنرصد المكرر من معانيها في مجموعات تحتوي معانيَ نفسيةً وسلوكيةً وتوجيهاتٍ إداريةً مختلفة:

= ناجي إبراهيم العبيدي، أدب تحرير العراق في صدر الإسلام، (رسالة ماجستير، بغداد، ١٩٨٦)، ص: ٤٦٢- ٥٢٢.

(٥٤) الرضي، نهج البلاغة، ص: ٦٢١-٦٢٤.

- **ففي امتلاك أمر النفس:**

١- "أمره أن يكسر نفسه من الشهوات ويزعها عند الجمحات، فإن النفس أمارة بالسوء"

٢- "فاملك هواك وشحّ بنفسك عما لا يحل لك"

- **وفي العدل ومجانبة الظلم:**

١- "أشعرْ قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً...".

٢- "فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه...".

١- "ولا تندمنّ على عفو، ولا تبجحنّ بعقوبة، ولا تسرعنّ إلى بادرة وجدت منها مندوحة..".

٢- "أنصف الله وأنصف الناس من نفسك.."

٤- ويعود في موضع آخر إلى الحديث عن العدل والمساواة "ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فإنّ في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان، وتدريبا لأهل الإساءة..."[٥٥].

٥- "من ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده"

٦- "وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله، وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم...".

- **وفي مراقبة الله والخوف منه:**

١- "ولا تنصبنّ نفسك لحرب الله فإنه لا يدَ لك بنقمته".

١- "وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة فانظر إلى عظم ملك الله فوقك، وقدرته على ما لا تقدر عليه من نفسك".

٢- "إياك ومساماة الله في عظمته والتشبه في جبروته، فإن الله يذل كل جبار، ويهين كل مختال...". فظاهر تكرار المعاني في صور نمطية، وإن بدت ذات تشكيل بياني، إذ إن الترادف وشبه الترادف والتضاد أدوات لغوية دارت في فلك واحد من التكرار دون التضام والانسجام.

- **وفي الأمانة وحفظ العهد:**

"وإن عقدت بينك وبين عدوّك عقدة، أو ألبسته منك ذمة فحط عهدك بالوفاء، وارع ذمتك بالأمانة، واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت"[٥٦].وقال: "... فلا تغدرنّ بذمتك، ولا تخيسنّ بعهدك، ولا تختلنّ عدوك..."[٥٧]، وقال: "فلا إدغال ولا مدالسة ولا خداع فيه، ولا تعقد عقداً تجوّز فيه العلل، ولا تعوّلن على لحن قول بعد التأكيد والتوثقة، ولا يدعونّك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله إلى طلب انفساخه بغير الحق"[٥٨].

إنّ الدعوة الأولى لحفظ العهد كفيلة بإيصال المعنى بوضوح للمرسَل إليه، وجاءت الأفعال الأخر ترديداً لدعوة حفظ العهد من غير حاجة ماسّة لها فهي

(٥٥) الرضي، نهج البلاغة، ص: ٦٢٦.

(٥٦) المصدر نفسه، ص: ٦٤٤- ٦٤٥.

(٥٧) المصدر نفسه، ص: ٦٤٥.

(٥٨) الرضي، نهج البلاغة، ص: ٦٤٥- ٦٤٦.

أقرب إلى الحشو إذ إنها تحمل المعنى ذاته من عدم الغدر والخيانة إذ تصبُّ جميعها في دائرة دلالية واحدة[٥٩]؛ خَيَس: غدر ونكث، وخَتَل: خدع، ودَغَل: خان، ودَلَس: خدَع.

- **وفي الوعظ والوصية:**

قال موصياً بالجيش: "... فافسح في آمالهم وواصل في حسن الثناء عليهم وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم؛ فإن كثرةَ الذكر لحسن أفعالهم تهزّ الشجاع، وتحرّض الناكل"[٦٠]. وقال إثر ذلك مباشرة: "ثم اعرفْ لكل امرئ منهم ما أبلى، ولا تضيفنّ بلاءَ امرئ إلى غيره، ولا تقصرنّ به دون غاية بلائه، ولا يدعونّك شرفُ امرئ إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيراً، ولا صنعةَ امرئ إلى أن تستصغرنّ من بلائه ما كان عظيماً"[٦١].

وغير خاف ما في هاتين الوحدتين النصيتين من تكرار المصدر "بلاء" خمس مرّات مع الفعل أبلى على الرغم من إمكانية القول بالتفصيل والإجمال، فالدعوة الأولى كفيلة بإيصال المعنى بوضوح تام لا حاجة لإلحاقه بتفصيل ليس مقامه هنا.

ومن مظاهر التكرار وصيّته بالطبقة السفلى من الناس فقال: "ثم اللهَ اللهَ في الطبقة السفلى من الذين لا حيلةَ لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البؤس والزّمنى؛ فإن في هذه الطبقة قانعاً ومعتدّاً، واحفظْ لله ما استحفظك من حقه فيهم..."[٦٢]. وعاد ليقول: "وتعهدْ أهل اليتم وذوي الرقة في السّن ممن لا حيلة له، ولا ينصب للمسألة نفسه..."[٦٣]، ثم قال: "واجعل لذوي الحاجات منك قسماً تفرّغ لهم فيه شخصك، وتجلس لهم مجلساً عامّا..."[٦٤]، فذوو الحاجات هم من جاء الإرشاد إلى رعايتهم من (المساكين والمحتاجين) وأهل اليتم هم أيضاً ممن يدخل في زمرة المساكين، وكذلك يقال عن ذوي الرقة في الحال والمعاش.

وقال محذراً من سفك الدماء: "إياك والدماءَ وسفكَها بغير حلّها، فإنه ليس شيءٌ أدنى لنقمة، ولا أعظم لتبعة، ولا أحرى بزوال نعمة وانقطاع مدة من سفك الدماء بغير حقها..."[٦٥]، وهذا التحذير كاف للتوجيه ومعبر عن الغاية إلا أنه استمر مفصلاً ومكرراً: "والله سبحانه مبتدئ بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة، فلا تقوينّ سلطانك بسفك دم حرام؛ فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه، بل يزيله وينقله، ولا عذر لك عند الله وعندي في قتل العمد..."[٦٦].

---

(٥٩) ابن منظور، لسان العرب، مادة: خيس وختل ودغل ودلس.

(٦٠) الرضي، نهج البلاغة، ص: ٦٣١.

(٦١) المصدر نفسه، ص: ٦٣١.

(٦٢) المصدر نفسه، ص: ٦٣٩.

(٦٣) الرضي، نهج البلاغة، ص: ٦٤٠.

(٦٤) المصدر نفسه، ص: ٦٤٠.

(٦٥) المصدر نفسه، ص: ٦٤٦.

(٦٦) المصدر نفسه، ص: ٦٤٦.

لا بدّ من الاحتراس أن بعضاً من هذا التكرار لاحق بمرجعيات التوضيح والتفسير ومقتضياته من التفصيل بعد الإجمال، والشرح بعد الاقتضاب، غير أن كثيراً مما سبقت الإشارة إليه لا يستقيم وبنيوية النص الطويل في التوجيه إلا على استكراه وتأويل بعيد.

وإذا كانت تلك المعاودات للمعاني، أو تفصيلاتها وتفريعاتها جائزة في مقام إلا أنها في هذا المقام لا تتسق وطابع العصر، ولا تتسق مع الظرف السياسي الذي يعانيه عليّ، والظرف الذاهب إليه الأشتر الذي قد يقتضي تعليماتٍ مكثفةً موجزةً يسهل الأخذ بها، وحفظها لتكون عوناً له، وهذا ما تقوم به وصيّة علي للأشتر التي رواها أبو مخنف. فالتكرار "يقتضي مراعاة تامة لمقتضيات المقام، وصنف المتلقين فهو يجوز في سياق، ويستثقل في آخر، وهو رافد للاقناع في مقام دون آخر، وهو ملائم لمتلق دون غيره"[٦٧]، وعلى ذلك فلا ضرورة مقامية تستدعي التكرار. بل الذي يستدعيه المقام خطاب موجز ليكون أقرب إلى القبول وألصق بالذاكرة وأقدر على الإثارة.

والتطويل والإسهاب من الميزات التي نفيت عن رسائل العهد الأموي فما بالنا برسائل صدر الإسلام؛ فقد نفي التطويل عن مراسلات أموية أقل طولا وإسهاباً من العهد الذي بين أيدينا للدراسة[٦٨].

ومن أسباب الإطالة في العهد مجافاة التكثيف في الجمل والعبارات؛ فجاءت جملته طويلة تخالف الطابع العام للكتابة الديوانية أو لفن الخطابة الإسلامية، وتخالف المرويات المنسوبة إلى علي في المظان التاريخية المتقدمة التي جاءت الجملة فيها قصيرة، مكثفة الدلالة لا تأخذ بناصية الجملة السابقة.

ولو عمدنا إلى المقابلة بين ما جاء في عهد علي لمحمد بن أبي بكر، وما جاء في عهده للأشتر لتجلى لنا التطويل واضحاً. جاء في عهده لمحمد: "وبالغلظة على الفاجر ... وبالشدة على الظالم..."[٦٩]، واكتفى بهذا وجاء في عهده للأشتر محذراً من فساد العمال: ".. فإن أحداً منهم بسطَ يدَه إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبارُ عيونك اكتفيت بذلك شاهداً فبسطتَ العقوبةَ في بدنه، وأخذته بما أصاب من علمه، ثم نصبته بمقامٍ عليه المذلة، ووسمته بالخيانة وقلّدته عارَ التهمة"[٧٠].

وفي العهد لجوء إلى الاستقصاء والبحث في التفريعات، ونمثل على ذلك بحديثه عن "التجار وذوي الصناعات" إذ يقول: "ثم استوصِ بالتجار وذوي

---

(٦٧) سامية الدريدي، الحِجَاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، (عالم الكتب الحديث، عمان، ط١، ٢٠٠٨)، ص: ١٧٣.

(٦٨) انظر: لطيفة البكّاي، قراءة في رسالة ابن إباض، (دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠٢)، ص: ٤٦ -٤٨، وانظر:

Jaser abu Safieh, Umayyad Epistolography with Special Reference to the Composition Ascribed to Abd-Allhamid Al – Katib., (London, 1982).

(٦٩) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٥٥٦/٤.

(٧٠) الرضي، نهج البلاغة، ص: ٦٣٤.

الصناعات وأوص بهم خيراً: المقيم منهم والمضطرب بماله، والمترفق ببدنه، فإنهم موادُّ المنافع، وأسبابُ المرافق وجلابها من المباعد والمطارح، في برك وبحرك وسهلك وجبلك، وحيث لا يلتئم الناسُ لمواضعها ولا يجترئون عليها، فإنهم سلمٌ لا تخاف بائقته وصلحٌلاتخشى غائلته. وتفقد أمورَهم بحضرتك وفي حواشي بلادك. واعلم – مع ذلك – أن في كثير منهم ضيقاً فاحشاً، وشحاً قبيحاً واحتكاراً للمنافع وتحكما في البياعات، وذلك بابُ مضرة للعامة وعيبٌ على الولاة. فامنعْ من الاحتكار فإن رسولَ الله، صلى الله عليه وآله وسلم - منع منه، وليكن البيعُ بيعاً سمحاً بموازين عدل، وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع فمن قارفَ حكرةً بعد نهيك إياه فنكلْ به، وعاقبه في غير إسراف"[٧١].

إن النشر الإسلامي في هذه المرحلة المبكرة كان يكتفي بالتوصية العامة بالناس من غير تفصيل لفئات المجتمع، والحديث عن كل فئة بخصوصية واستقصاء لوضعها في المجتمع ودورها فيه.

ومن مظاهر الإطالة توالي الجمل المتتابعة بالعطف، المتصلة بالحديث عن حالة معينة مثل حديثه عن اختيار القضاة إذ ذكرَ أربعَ عشرة صفة لمن يتولى الفصل بين الناس فقال: "ثم اختر للحكم بين الناس أفضلَ رعيتك في نفسك ممن لا تضيقُ به الأمور، ولا تمحكه الخصومُ ولا يتمادى في الزلة، ولا يحصر من الفيء إلى الحق إذا عرفه، ولا تشرف نفسه على طمع، ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه، وأوقفهم في الشبهات، وآخذهم بالحجج، وأقلهم تبرما بمراجعة الخصم، وأصبرهم على تكشف الأمور، وأصرَمهم عند اتضاح الحكم، ممن لا يزدهيه إطراء، ولا يستميله إغراء، وأولئك قليل"[٧٢]. وقال واصفاً "أهل الخاصة": "وليس أحد من الرعية أثقلَ على الوالي مؤونة في الرخاء وأقلَّ معونة له في البلاء، وأكرَه للإنصاف، وأسألَ بالإلحاف، وأقلَّ شكراً عند الإعطاء، وأبطأ عذراً عند المنع، وأضعفَ صبراً عند ملمات الدهر من أهل الخاصة"[٧٣].

وكان للجمل التعليلية (التفسيرية) نصيب من التسبب في إطالة المرويّة، ونمثل على ذلك بالحديث المتعلق باختيار العمال إذ لحقت الجمل التعليلية كلَّ طلب متعلق باختيارهم فقال: "ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختباراً، ولا تولهم محاباةً وأثرة؛ فإنهم جماعٌ من شعب الجور والخيانة. وتوخَّ منهم أهلَ التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام المتقدمة، فإنهم أكرمُ أخلاقاً، وأصحُّ أعراضاً، وأقلُّ في المطامع إشرافاً، وأبلغُ في عواقب الأمور نظراً. ثم أسبغ عليهم الأرزاق؛ فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو ثلموا

(٧١) الرضي، نهج البلاغة، ص: ٦٣٧- ٦٣٨.

(٧٢) المصدر نفسه، ص: ٦٣٢- ٦٣٣.

(٧٣) المصدر نفسه، ص: ٦٤٢.

أمانتك. ثم تفقد أعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم، فإن تعاهدك في السر لأمورهم حدوةٌ لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية"(٧٤).

تبعت الجملُ التعليليةُ الأفعالَ الطلبية: "فاستعملهم وتوخّ وأسبغ، وتفقد" ولو افترضنا أن التعليل لفعلي الأمر "أسبغ وتفقد" مناسب إلا أنّه لا ضرورة لأربع جمل تعليلية جاءت بعد الفعل "وتوخّ" إذ من المعروف البدهي أن أهل التجربة والحياء والصلاح والقدم في الإسلام خير من يُولّى. ومن أمثلة هذه الجمل قوله في ضرورة التعامل مع الرعية تعاملاً مباشراً وعدم الاحتجاب عنهم: "وأما بعد، فلا تطولنّ احتجابك عن رعيتك؛ فإن احتجاب الولاة عن الرعية شعبةٌ من الضيق، وقلةُ علم بالأمور، والاحتجاب منهم يقطع عنهم علمَ ما احتجبوا دونه؛ فيصغر عندهم الكبير، ويعظم الصغير، ويقبح الحسن ويحسن القبيح، ويشاب الحق بالباطل"(٧٥).

إن في الجملة التعليليّة قدراً كبيراً من التوجه صوب الاقتناع بالأمر والنهي إذا كان اللجوء إليها متناغماً مع المتلقي والمقام، لكنها تفقد وهجها الإقناعي إذا لحقت كل أمر ونهي، فتغدو كالعناصر الميتة التي لا جدوى إقناعية أو حجاجية منها. فكأنّها تلمّح إلى افتقار المتلقي إدراكَ عواقب السلوك سلباً أو إيجاباً. والأشتر لم يختره عليّ إلا لما عرف من قدرته الإداريّة، وفطنته السياسية. وهذا الخطاب التعليليّ جدير بأن يتوجه لمحمد بن أبي بكر قليل الخبرة والتجربة.

واللجوء إلى هذه الأساليب لا يعني أنها لم تكن مستخدمة في نثر هذه المرحلة لكن استخدامها كان ضمن مرويّات موجزةٍ بعيدةٍ عن الإطالة، إذ وقفت عند المعاني المركزة، والأفكار المضغوطة والاكتفاء بالقليل والبعد عن تشقيق الكلام(٧٦)، فكان الخلفاء والولاة وقادة الجيش في هذه الحقبة يعدلون إلى اختيار الكلمة أو العبارات ذات اللوازم الفكريّة، والدلالات الكليّة الشاملة التي تحترم عقل المتلقي في الفهم، ومعرفة ما وراء الجملة من معان مباطنة، ويستغنون بها عن طويل الكلام ليظهر موجزاً قصيراً مع غزارة المعنى ودقته.

١ - مصطلحات متأخرة

تضمن العهد عدداً من المصطلحات التي تأخرت في الظهور عن عصر صدر الإسلام ومنها: مصطلح العامة والخاصة الذي جاء في قوله: "وليكن أحب الأمور إليك أوسطَها في الحق، وأعمَّها في العدل وأجمعَها لرضى الرعية؛ فإنّ سخطَ العامة يجحف برضى الخاصة، وإنّ سخط الخاصة يغتفر مع رضى العامة. وليس أحدٌ من الرعية أثقلَ على الوالي مؤونة

(٧٤) الرضي، نهج البلاغة، ص: ٦٣٣- ٦٣٤، وانظر: ص: ٦٤٤، ٦٤٦، ٦٤٧.

(٧٥) لمصدر نفسه، ص: ٦٤٢.

(٧٦) فيصل، شكري، المجتمعات الإسلامية، ص: ٣٦٥-٣٦٧.

في الرخاء وأقلَّ معونة له في البلاء، وأكره للإنصاف، وأسأل بالإلحاف وأقل شكراً عند الإعطاء، وأبطأ عذراً عند المنع، وأضعف صبراً عند ملمات الدهر من أهل الخاصة. وإنما عماد الدين وجماع المسلمين والعدة للأعداء العامة من الأمة، فليكن صَغْوُك لهم، وميلك معهم"(٧٧). ولنا على هذه الوحدة النصيّة الملاحظات التالية:

١- إنّ مصطلحي "العامة" و "الخاصة" بما يحملان من دلالات اجتماعية طبقية لا وجود لها في مرويّات هذا العصر، إذ إنّ فئات المجتمع لم تتبلور بعد لتفرز في طبقات لها مسمّيات، ولها خصائص عامة تجمعها.

٢- لا حديثَ في العهد عمّن يندرج تحت اسمي "الخاصة" و "العامة" من فئات المجتمع، فهل كان التقسيم قائماً على أساس ديني أو اقتصادي، أو قبليّ، أو هل كان قائماً على أساس القرب من الحاكم أو البعد عنه.

٣- في العهد إطلاق لأحكام جامعة على فئتين "العامة" و "الخاصة" إذ ليس ضرورياً أن تكون الخاصة على هذه الصورة السلبية، وكذلك العامة ليست إيجابية الصورة على الإطلاق.

٤- لم يحدد العهد القضايا التي تستدعي "السخط" أو "الرضا"، هل هي قضايا في الدين أو في سياسة الدولة أو في الاقتصاد أو في العلاقات الاجتماعية فعموميّة الأمرين لا تعطي المرسَل إليه معاني محددة يسهل التعامل وفقها، مع ملاحظة أنّ العهد أساسه سياسة الدولة والرعيّة.

٥- التفرقة بين "العامة" و "الخاصة" لا تنسجم ونظرة الإسلام إلى أنّ الناس سواسية كأسنان المشط لا فضلَ لأحد على الآخر إلا بتقواه.

٦- يعود العهد متحدثاً عن الخاصة: "ثم إنّ للوالي خاصة وبطانة، فيهم استئثار، وتطاول، وقلة إنصاف في معاملة، فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال. ولا تُقطعنّ لأحد من حاشيتك وحامّتك قطيعة، ولا يطمعنّ منك في اعتقاد عقدة، تضر بمن يليها من الناس في شرب أو عمل مشترك يحملون مؤونته على غيرهم فيكون مهنأ ذلك لهم دونك، وعيبه عليك في الدنيا والآخرة"(٧٨). هل يترشحّ من هذا الحديث أنّ "الخاصة" هم بطانة الوالي وحاشيته؟ وهذا قد يتعارض مع دعوة العهد لاتخاذ بطانة أو "خاصة" من فئات بعينها دعاه العهد إلى التقرب منهم وإعطائهم: "ثم الصق بذوي المروءات والأحساب وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة، ثم أهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة؛ فإنهم جماع من الكرم، وشعب من العُرف. ثم تفقد من أمورهم ما يتفقد الوالدان من ولدهما، ولا يتفاقمنّ في نفسك شيء قوّيتهم به، ولا تحقرنّ لطفا تعاهدتهم به وإن قلّ؛ فإنه داعية لهم إلى بذل النصيحة لك، وحسن

(٧٧) الرضي، نهج البلاغة، ص: ٦٢٤.

(٧٨) الرضي، نهج البلاغة، ص: ٦٤٣.

الظن بك. ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالا على جسيمها ؛ فإن لليسير من لطفك موضعا ينتفعون به ، وللجسيم موقعاً لا يستغنون عنه"[٧٩]. ودعاه إلى الالتصاق بفئة أخرى هي أهل الورع والصدق : "... والصق بأهل الورع والصدق ، ثم رضهم على أن لا يطروك ، ولا يبجحوك بباطل لم تفعله ، فإنّ كثرة الإطراء تحدث الزهو ، وتدني من العزّة"[٨٠].

٧- وردت لفظتا "العامة والخاصة" قي مرويّات متقدمة منسوبة لعلي بن أبي طالب ولكن من غير أن تحمّل بالدلالات الطبقيّة التي وردت في عهد الأشتر ، ومن غير إلصاقها بصفات سلبيّة أو إيجابية ، بل ظهرتا مثل بقية فئات المجتمع التي يتنازعها السلب والإيجاب فجاء في عهد علي لقيس بن سعد سنة ٣٦هـ حين ولاه مصر قبل تولية محمد بن أبي بكر : "سر إلى مصر فقد وليتكها ، واخرجْ إلى رحلك ، واجمعْ إليك ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك حتى تأتيها ومعك جند ؛ فإن ذلك أرعبُ لعدوّك ، وأعزُّ لوليك. فإذا أنت قدمتها — إن شاء الله — فأحسنْ إلى المحسن ، واشتدّ على المريب ، وارفقْ بالعامة والخاصة ؛ فإنّ ذلك يمن"[٨١]. وقال في رسالته إلى أهل مصر حين ولّى قيس بن سعد بن عبادة أميراً عليها : "فوازروه وكانفوه ، وأعينوه على الحق. وقد أمرته بالإحسان إلى محسنكم ، والشدة على مريبكم ، والرفق بعوامّكم وخواصّكم..."[٨٢].

ومن المصطلحات المتأخرة "السنة الجامعة غير المفرقة" : "واردد إلى الله ورسوله ما يضلعك من الخطوب ، ويشتبه عليك من الأمور ، فقد قال الله تعالى لقوم أحب إرشادهم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴿٥٩﴾ ﴾[٨٣] فالرد إلى الله : الأخذ بمحكم كتابه ، والرد إلى الرسول : الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة"[٨٤].

إنّ الحديث حول "السنة الجامعة والمفرقة" ظهر بعد عصر صدر الإسلام إذ تناول هذا العلم الأحاديث التي ظاهرها التعارض من حيث الجمع ، والتوفيق بينها إما بتقييد مطلقها أو بتخصيص عامها ، أو بحملها على الحادثة التي جاء الحديث من أجلها. ويبحث كذلك في الأحاديث التي يشكل فهمها أو تصورها فيدفع إشكالها ويوضح حقيقتها. وأول من ألف في ذلك محمد بن إدريس الشافعي المتوفى سنة (٢٠٤هـ) ، في كتابه "اختلاف الحديث"[٨٥].

---

(٧٩) الرضي ، نهج البلاغة ، ص : ٦٣٠.

(٨٠) المصدر نفسه ، ص : ٦٢٦.

(٨١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ٤/٥٤٧-٥٤٨.

(٨٢) المصدر نفسه ، ٤/٥٤٩.

(٨٣) سورة النساء ، آية : ٥٩.

(٨٤) الرضي ، نهج البلاغة ، ص : ٦٣١- ٦٣٢.

(٨٥) محمد عجاج الخطيب ، أصول الحديث وعلوم مصطلحه ، (دار الفكر ، بيروت ، ١٩٨٩) ، ص : ٢٨٣- ٢٨٥ ، محمود الطحان ، تيسير مصطلح الحديث ، (مكتبة المعارف ، الرياض ، ١٩٨٥) ، ص : ٥٦-٥٨.

وتضمن العهد مصطلحي: "العلماء والحكماء": "وأكثر مدارسة العلماء، ومنافثة الحكماء في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك، وإقامة ما استقام به الناس قبلك"(٨٦)، إنّ علي بن أبي طالب كان يُعرفُ بالعلم ومع ذلك لم يسمّ عالماً أو حكيماً، ولم يرد المصطلحان في وثائق هذا العصر، لأنهما مرتبطان بتطور العلوم على اختلافها، وهذا متعلق بمرحلة تاريخية متأخرة.

وجاء في العهد الحديث عن طبقة "عمال الانصاف والرفق"(٨٧)، ولا تعرف حقيقة هذه الفئة من الناس، وسبب تسميتهم بهذا الاسم، وهل تختلف هذه الطبقة عن "قضاة العدل"، إنّ هذه الفئة لا وجود لها في هذا العصر. فلم يكن هناك إلا القضاة الذين يوليهم الخليفة وليس الوالي. ولا حديث في العهد عن هذه الطبقة، وكيفية اختيار أفرادها أو المهمات المناطة بهم إذ لم تذكر إلا مرة واحدة في أثناء تعداد الطبقات، ولم يفصّل الحديث حولها كما فصل الحديث في الطبقات الأخر.

الخاتمة

وبعد، فإنّ القراءة النقدية التوثيقية فيما نسب إلى علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – في عهده للأشتر النخعي تشير بجلاء إلى بعد المروية عن عصرها المفترض أسلوبا ومضامين. والرواية التاريخية كما رويت في نهج البلاغة لا تعزز نسبة العهد على نحو ما أثبته الشريف الرضي في كتاب "نهج البلاغة"؛ فقد ورد العهد في رواية متقدمة تتناسب والظرف التاريخي الذي أحاط به، وتقترب كثيرا مما ألفناه من مرويات نسبت لعلي بن أبي طالب سبق وأرسلها إلى ولاته في أثناء خلافته التي لم تزد على أربع سنوات؛ فهي منسجمة مع سَنَن الكتابة في زمانه من إيجاز وتكثيف، وبعد عن التكرار أو الاستقصاء والتفصيل هذه السمات البارزة بجلاء في غير موضع من رواية العهد كما جاءت في النهج؛ فالمسافة التي تفصل العهد أكبر كثيرا من أن تحتمل أيّ شكل من أشكال التأويل. بل إن الكثير من المهمات التي أنيطت بالوالي في العهد مثل تعيين الوزراء والعمال على الأموال والقضاة لم تكن موكولة إلى الولاة في صدر الإسلام.

وأما طبقات المجتمع في العهد فإنها بعيدة عن واقع المجتمعات الإسلامية التي ما زالت في طور التكوين والتبلور في العصر الإسلامي فالطبقات الواردة في العهد قد تبلورت في وقت متأخر إثر انتشار الإسلام، وتطور المجتمعات ونموّها. عدا عن تضمن المروية عددا من المصطلحات التي لم تكن مستخدمة في عصر صدر الإسلام؛ لذا فإن هذه المروية ليست بنت عصرها المنسوبة إليه هذا العصر الذي يختلف كلّ الاختلاف عما جاء فيها من جهتي المضمون وأسلوب التناول.

(٨٦) الرضي، نهج البلاغة، ص: ٦٢٧.

(٨٧) المصدر نفسه، ص: ٦٢٨.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

إبـــراهيم حركـــات، السياسة والمجتمع في عصر الراشدين، (الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٥، بيروت).

أحمد بـن حنبـل، المسند، (٤٥م، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١)، ١٩٩٧.

الأزدي، محمد بن عبد الله، فتوح الشام، تحقيق: محمد عبد المنعم عامر، (مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٧٠)، وتحقيق: عصام عقلة ويوسف بني ياسين، (مؤسسة حمادة، إربد، الأردن، ٢٠٠٦).

أنـيس المقدسـي، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، (دار العلم للملايين، ط١، ١٩٦٠).

البلاذري، أحمد بن يحيى:

أنـساب الأشـراف، تحقيق: سهيل زكار ورياض زركلي، (دار الفكر، بيروت، ١٩٩٩).

فتوح البلـدان، تحقيق: محمد رضوان، (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٢).

جاسر أبو صفية، "منهج في دراسة الأدب". مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، السنة العاشرة، عدد ٣١.

ابن أبي الحديد عز الدين بـن هبـة الله، شرح نهج البلاغة، (١١م، ٢١ جزء، تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، دار الأضواء، بيروت).

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمـد، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، (ط١، دار الكتاب العربي، ١٩٩٠)، حوادث سنة: ٦١- ٨٠هـ.

ابن حزم، أبو محمد علي بـن أحمـد، جمهرة أنساب العرب، تحقيق: ليفي بروفنسال، (دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٨).

سامية الدريدي، الحِجَاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، (عالم الكتب الحديث، عمان، ط١، ٢٠٠٨).

السيد عبد المحسن فضل الله، نظرية الحكم والإدارة في عهد الإمام علي عليه السلام للأشتر، (دار التعارف، بيروت، ط٢).

الشريف الرضي علي بن الحسين، نهج البلاغة، (١م، تحقيق: محمد عبده، مؤسسة المعارف، ١٩٩٦).

شكري، فيصل، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول الهجري: نشأتها مقوماتها، تطورها اللغوي، (دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٣).

ابن طباطبا، محمـد بـن علـي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، (١م، مطبعة بيروت، ط١، ١٩٦٠).

الطبري، محمد بـن جريـر، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (بيروت، لبنان).

عبد السميع الهراوي، لغة الإدارة العامة في صدر الإسلام، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦).

عبد العزيز الدوري: مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، (دار المشرق، بيروت، ١٩٨٤، ط١).

النظم الإسلامية، (مطبعة نجيب، بغداد، ط١، ١٩٥٠).

فربال هديب، "الخطاب الأخلاقي في وصايا العصر الإسلامي، مضامين وأساليب"، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، حولية ٢٧، الرسالة ٢٥٥.

لطيفة البكّاي، قراءة في رسالة ابن إباض، (دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠٢).

المبرّد، أبو العباس محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (ط١، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٧٧).

محمد خريسات، "عمر بن الخطاب والولاة"، المؤرخ العربي، عدد ٢٥، (١٩٨٤).

محمد الصادق عفيفي، المجتمع الإسلامي وأصول الحكم، (دار الاعتصام، ط١، ١٩٧٩).

محمد عبد المنعم خميس، الإدارة في صدر الإسلام، (دراسة مقارنة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٧٤).

محمد عجاج الخطيب، أصول الحديث وعلوم مصطلحه، (دار الفكر، بيروت، ١٩٨٩).

محمد ماهر حمادة، الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي، (ط١، مؤسسة الرسالة دار النفائس، ١٩٧٤).

محمد مهدي شمس الدين: دراسات في نهج البلاغة، (دار الزهراء، ١٩٧٢، بيروت، ط١).

عهد الأشتر، (مؤسسة الرخاء، ١٩٨٤، بيروت، ط١).

محمود الطحان، تيسير مصطلح الحديث، (مكتبة المعارف، الرياض، ١٩٨٥).

محمود المقداد، تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الإسلام، (دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٣).

مصطفى عليان، مقدمة في دراسة الأدب الإسلامي، (دار المنارة، جدّة، ط١، ١٩٧٩).

ابن ميثم، كمال الدين بن علي، شرح نهج البلاغة، (٥م، دار الثقلين، بيروت، ١٩٩٩، ط١).

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، (٣٠م، دار صادر، بيروت).

ناجي إبراهيم العبيدي، أدب معارك تحرير العراق في صدر الإسلام، (رسالة ماجستير، بغداد، ١٩٨٦).

النويري، شهاب الدين، نهاية الأرب في فنون الأدب، (١٨م، نسخة مصوّرة عن طبعة دار الكتب).

وداد القاضي، نحو منهج سليم في موثوقية الرسائل العربية الإسلامية المبكرة، سلسلة موافقات (في

قراءة النص الديني)، (تونس، ١٩٩٨).

ياقوت الحموي، معجم البلدان، (٢م، دار صادر، بيروت).

أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم، الخراج، (١م، تحقيق: إحسان عباس، دار الشروق، بيروت، ط١)، ١٩٨٥.

المراجع الأجنبية:

Jaser abu Safieh, Umayyad Epistolography with Special Reference to

Abd-Allhamid Al – Katib, Composition to Ascribed, London, 1982.

Reuben Levy, The Social Structure of Islam, (Cambridge, 1965).

Ali Ben Abu Taleb's Decree to Al- Ashtar Al-Nakha'ai: A Documental Study

Ferial Abdullah Hudeib and Muhammad Ali Sharida
Assistant Professor, University of Jordan Language Center

(Received 15/8/1432H.; accepted for publication 10/11/1432H.)

Abstract. The Tratna Arab, particularly relating to the era of Islam, was attributed to him Marwiyaat historical and literary loaded on stability, and built accordingly the terms and ideas may not be consistent with the age and circumstances, different in many in which he said, was to be read again targeting documented and proven to be of the provisions of the share from the reality of time, and conditions in the areas of language and different historical.

And we went in this research to consider the documentary Altaesela irrigated task demonstrated Sharif Razi in the book "approach to rhetoric," a reign of Ali bin Abi Talib, may Allah be pleased with him and to him to Egypt Ashtar Nakha'i.

And called the excessive length of the era that was not familiar era, but some of the issues addressed by the policy, such as layers of society, and the number of terms were not in circulation as well.

And required a novel attempt to document the era as reflected in the approach followed in the sources of eloquence history advanced and late, which shows the interruption of the text is supposed to be done on the ends of the fourth century AH, as it has not been working on the mentioned or referred to before. The Advanced historical novel has been unclear, but it provided an alternative closer to the times, and Sunan writing it, as well as more in line with the covenants on to his governors to Egypt before the mandate of the Ashtar. In addition to assigning a set of tasks of the Covenant that were not vested Balolah in the era of Islam. Based on what led him to consider the documentary Altaesela irrigated, it is difficult to carry the era of Islam, or to 'Ali ibn Abi Talib